

التحرير والتنوير

وهذا في عذاب الاستئصال وأما ما يصيب الناس من المصائب والفتن الوارد فيه قوله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) فذلك منوط بأسباب عادية فاستثناء الصالحين يقتضي دواليب كثيرة من دواليب النظام الفطري العام وذلك لا يريد إلا تعطيله لما يستتبع تعطيله من تعطيل مصالح عظيمة وإلا أعلم بذلك .

أراد إذا " : يقول A إلا رسول سمعت : قال عمر بن إلا عبد عن مسلم صحيح في جاء فقد A إلا يقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم يبعثون على نياتهم " أي يكون للمحسن الذي أصابه العذاب تبعا جزاء على ما أصابه من مصيبة غيره . وإنما الذي لا ينال البريء هو العقاب الأخرى الذي جعله إلا جزاء على التكليف وهو معنى قوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) .

وفي هذه الآية إشارة إلى أن الدواب التي على الأرض مخلوقة لأجل انتفاع الإنسان فلذلك لم يكن استعمال الإنسان إياها فيما تصلح له ظلما لها ولا قتلها لأكلها ظلما لها . والمؤاخذه : الأخذ المقصود منه الجزاء فهو أخذ شديد ولذلك صيغت له صيغة المفاعلة الدالة على الكثرة فدل على أن المؤاخذه المنتفية ب (لو) هي الأخذ العاجل المناسب للمجازاة لأن شأن الجزاء في العرف أن لا يتأخر عن وقت حصول الذنب . ولهذا جاء الاستدراك بقوله تعالى (ولكن يؤخروهم إلى أجل مسمى) . فموقع الاستدراك هنا أنه تعقيب لقوله تعالى (ما ترك عليها من دابة) . والأجل : المدة المعينة لفعل ما . والمسمى : المعين لأن التسمية تعيين الشيء وتمييزه وتسمية الآجال تحديدها .

وتقدم نظير هذه عند قوله تعالى (ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) في سورة الأعراف .

(ويجعلون إلا ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون [62]) هذا ضغث على إباله من أحوالهم في إشراكهم تخالف قصة قوله تعالى (ويجعلون إلا البنات) باعتبار ما يختص بهذه القصة من إضافتهم الأشياء المكروهة عندهم إلى إلا مما اقتضته كراحتهم البنات بقوله تعالى (ولهم ما يشتهون) فكان ذلك الجعل ينطوي على خصلتين من دين الشرك وهما : نسبة البنوة إلى إلا ونسبة أخس أصناف الأبناء في نظرهم إليه فخصت الأولى بالذكر بقوله (ويجعلون إلا البنات) مع الإيماء إلى كراحتهم البنات كما تقدم . وخصت هذه بذكر الكراهية تصريحاً ولذلك كان الإتيان بالموصول والصلة (ما يكرهون)

هو مقتضى المقام الذي هو تفضيع قولهم وتشنيع استئثارهم . وقد يكون الموصول للعموم فيشير إلى أنهم جعلوا ۞ أشياء يكرهونها لأنفسهم مثل الشريك في التصرف ؛ وأشياء لا يرضونها لآلهتهم ونسبوها ۞ كما أشار إليه قوله تعالى (فما كان لشركاتهم فلا يصل إلى ۞ وما كان ۞ فهو يصل إلى شركاتهم ساء ما يحكمون) .

وفي الكشف : (يجعلون ۞ أرذل أموالهم ولأصنامهم أكرمها) . فهو مراد عموم الموصول فتكون هذه القصة أعم من قصة قوله تعالى (ويجعلون ۞ البنات) ويكون تخصيصها بالذكر من جهتين : جهة اختلاف الاعتبار وجهة زيادة أنواع هذا الجعل .

وجملة (وتصف ألسنتهم الكذب) عطف قصة على قصة أخرى من أحوال كفرهم . ومعنى (تصف) تذكر بشرح وبيان وتفصيل حتى كأنها تذكر أوصاف الشيء . وحقيقة الوصف : ذكر الصفات والحلي . ثم أطلق على القول المبين المفصل . قال في الكشف في الآية الآتية في أواخر هذه السورة : هذا من فصيح الكلام وبليغه . جعل القول كأنه عين الكذب فإذا نطقت به ألسنتهم فقد صورت الكذب بصورته كقولهم : وجهها يصف الجمال وعينها تصف السحر) اهـ . وقد تقدم في قوله تعالى (سبحانه وتعالى عما يصفون) في سورة الأنعام . وسيأتي في آخر هذه السورة (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام) . ومنه قول المعري :

.. :

سرى برق المعرفة بعد وهن ... فيات برامة يصف الكلالة أي يشكو الإعياء من قطع مسافة طويلة في زمن قليل وهو من بديع استعاراته